

٣٠ عاماً على رحيل أشهر
مطرب عربي في القرن العشرين

عبد الحليم حافظ

الظاهرة.. والتفسير

بقلم -
ناصر عراق

«سامحني يارب على ما فعلت بنفسي. لم أقو على تحمل هذه الصدمة بوفاة أعز وأغلى ما في الحياة عبد الحليم حافظ، فقد كان النور الذي أضاء حياتي. واليوم.. الخميس كرهت الحياة منذ اللحظة التي قرأت في الصحف خبر وفاته! ». (١)

بهذه الرسالة الدامعة أنهت أميمة عبد الوهاب محمد – ٢١ سنة حياتها، بأن ألقت بنفسها من الطابق السابع في البناية ذاتها التي كان يسكن فيها مطربها المعشوق!

أما محمد عبد الوهاب (١٨٩٧-١٩٩١) أستاذه وشريكه في شركة إنتاج «صوت الفن»، فقد انهار حين علم بنبأ الرحيل عندما اتصل بالمستشفى الذي كان يعالج فيه عبد الحليم بلندن، ثم أغلق عليه باب حجرته وظل يصلي كما ذكرت جريدة «الأهرام» في ١٩٧٧/٤/١.

وكانت نهلة القدسي قرينة عبد الوهاب التي رافقت حليم في المستشفى بلندن، هي التي اتصلت بجريدة «الأهرام»، وأملت خبر وفاته في العاشرة من مساء الأربعاء ١٩٧٧/٣/٣٠ بتوقيت إنكلترا إثر نزيف حاد.

٤٠٠٠ رجل من قوات الشرطة تولوا تنظيم وتأمين الجنازة التي انطلقت في تمام الساعة ١١ من صباح السبت ١٩٧٧/٤/٢، من أمام مسجد عمر مكرم في ميدان التحرير، تقدمها حينذاك: رئيس الوزراء ممدوح سالم (كان أنور السادات رئيس الجمهورية وقتها في جولة أوروبية)، ووزير الثقافة والإعلام عبد المنعم الصاوي، ومحافظ القاهرة محمود عبد الحافظ.

بعد ذلك قام نائب رئيس الجمهورية محمد حسني مبارك بتقديم واجب العزاء في منزل عبد الحليم، حيث استقبله شقيقه الأكبر إسماعيل شبانة. لكن الاستعداد للجنازة كان قد بدأ في الواحدة من صباح السبت، حيث خلت منطقة وسط القاهرة من السيارات لاستيعاب عشرات الآلاف الذين انهمروا مع دموعهم نحو ميدان التحرير، وفي

الثامنة والنصف صباحاً كانت جموع الشباب لاتزال تتوافد من شارع قصر العيني في جماعات تحمل رايات سوداً وصوراً لعبد الحليم حافظ وتردد هتافات منها «لا إله إلا الله عبد الحليم حبيب الله»، و«الوداع يا حليم.. يا حبيب الملايين»، وكان نائب وزير الداخلية النبوي إسماعيل حاضراً يشرف بنفسه على الاستعدادات.

في ميدان التحرير تقدمت السيارة التي تحمل الجثمان وقد تمت تغطيته بعلم مصر بخطى بطيئة وخلفها المشيعون، بينما احتشد الآلاف فوق «كباري» المشاة العلوية وفي الشرفات المطلة على الميدان وأسطح العمارات، يلفهم الحزن العميق الذي عبرت عنه بعض بنات مصر وسيداتها بالبكاء والعويل. وعند بداية شارع «طلعت حرب» استطاعت الجماهير اختراق نطاق الحراسة المفروضة حول سلالم «كباري» المشاة وصعدت إليها وسقطت ثلاث فتيات تحت الأقدام تم إنقاذهن، كما سقط شاب مغمى عليه فأنقذه ضابط كان يقف بالقرب منه، بينما كانت الجنازة مستمرة في سيرها مخترقة الشارع الذي أغلقت جميع متاجره حداداً على رحيل عبد الحليم.

عند وصول الجثمان إلى مقبرته في حي البساتين والتي تقع بشارع الرحمة خلف مسجد الدندراوي داست الجماهير المندفعة طفلاً عمره ثماني سنوات فلقي حتفه في الحال، كما أصيب عشرات الشباب والبنات بالإغماء طوال مسيرة الجنازة وعند المدفن!

حسب علمي أنه ما من مطرب عربي آخر أثار كل هذه الفواجع برحيله مثل العندليب الأسمر، فالناس الذين تدلهوا في غرامه بلغوا الملايين منهم من أصابه الإغماء والاكتئاب عند غيابه، ومنهم من انتحر!

بداية المشوار

لم يكن انتحار أميمة عبد الوهاب محمد الطالبة بمدرسة الحلمية الثانوية التجارية، إلا تعبيراً عنيفاً عن لوعة الفقد لمطرب تمكن بصوته الأخاذ من التغلغل بيسر في أوردة وشرايين الملايين من جماهير العرب الذين امتزجوا معه وذاب فيهم بصورة نادرة في عالم الغناء!

والسؤال كيف يمكن أن نفسر ظاهرة عبد الحليم حافظ الآن بعد مرور ثلاثين عاماً على رحيله؟ هل نتكئ على التفسير الفني - الغنائي فقط، لكشف أسرار هذا العذاب الذي كوى قلوب الملايين من محبيه عندما غاب عن الدنيا في ١٩٧٧/٣/٣٠؟ أم نفتش في الأسباب السياسية والثقافية والاجتماعية -بجانب الفنية طبعاً- التي أحاطت بالمطرب الأول طوال حياته، عسى وعل أن نقترب من جوهر هذه الظاهرة العجيبة التي لونت سماء الفن في النصف الثاني من القرن العشرين؟

في عام ١٩٥١ سجل عبد الحليم حافظ أول أغنية لحنها له كمال الطويل وكان اسمها «لقاء»، وهي قصيدة من تأليف الشاعر الرائد صلاح عبد الصبور (١٩٣١ - ١٩٨١)، كان عبد الحليم آنذاك يبلغ من العمر ٢٢ عاماً، إذ ولد في ١٩٢٩/٦/٢١، في قرية الحلوات بمحافظة الشرقية (٩٠ كم تقريباً شمال شرقي القاهرة).

لم تلق قصيدة «لقاء» نجاحاً يذكر حين تمت إذاعتها، لكنه لم يستسلم للإحباط وقرر أن يتفرغ تماماً للغناء، فاستقال من التدريس حيث عمل لمدة ٤ سنوات مدرساً للموسيقى فور تخرجه في المعهد العالي للموسيقى العربية عام ١٩٤٨، بعد أن اكتشف أن جهده كمدرس يعطل نمو موهبته، فقد كان يذهب يومياً إلى مدينة طنطا (٨٤ كم شمالي القاهرة) حيث مقر عمله، وبعدها انتقل إلى الزقازيق (٦٠ كم)، ثم استقر أخيراً في القاهرة، ومع ذلك كان القرار بهجر هذه المهنة حاسماً.

بعد فشل أغنية «لقاء» غامر حليم ولم ييأس فقدم عام ١٩٥٢ «صافيني مرة» التي لحنها له صديقه محمد الموجي، وقد لاقت هذه الأغنية نجاحاً ملحوظاً، لكنها لم تؤهله لأن يتبوأ مكانة مرموقة في تلك الآونة، حتى عندما ألحقها بعدة أغنيات مثل «ظالم» و«ياتبر سايل بين شطين»، و«يا حلو يا أسمر»، و«ياماوعدني بكرة» وغيرها، فإن الناس استمعت له، ورحبت به لكن من دون أن تمنحه صك التميز والتفرد!

فساد وثورة

لا شك أن ما صنعه جمال عبد الناصر والذين معه ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان بمثابة صدمة اجتماعية مهمة، أطاحت نظاماً كان قد بلغ من فساده مثلاً: أن سرق الملك فاروق عام ١٩٤٤ سيف ونياشين الإمبراطور بهلوي إمبراطور إيران، وذلك إثر وفاته في جنوب إفريقيا ونقل جثمانه إلى مصر، فقد دفن مؤقتاً في مقابر الأسرة المالكة، ووضع سيفه الخاص ونياشينه في تابوته، وعندما أرادت حكومة إيران نقل الجثمان إلى طهران اكتشف سفيرها في القاهرة أن سيف الإمبراطور ونياشينه انتزعت من الجثة، وكان لهذه الحادثة ضجة كبيرة، إذ طالبت حكومة طهران بهذه المخلفات الثمينة، فأجاب القصر بأنه لا وجود لها، وتبين أن فاروق سرقها وأخفاها

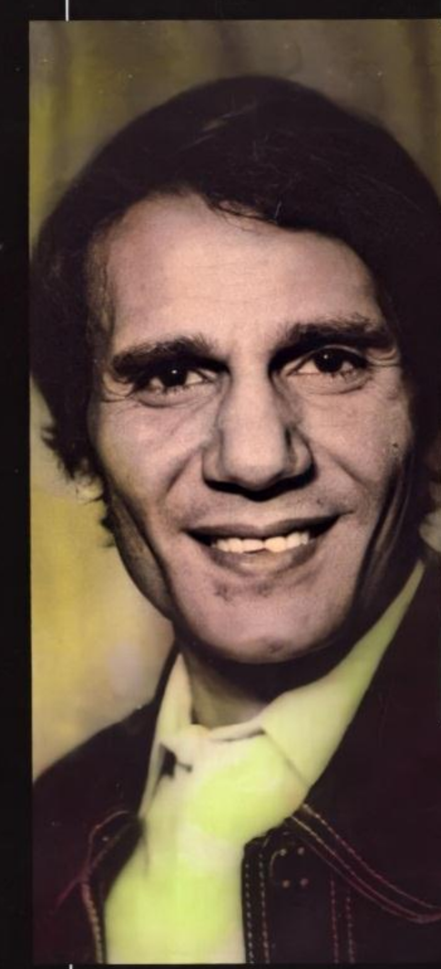
عبد الحليم حافظ

ناصر عراق ٢٠٠٦

جمال عبد الناصر

أم كلثوم

عبد الحليم حافظ



في قصر القبة، وذهبت عبثاً مطالبة إمبراطور إيران حينها وحكومته طوال ثماني سنوات بهذه المخلفات الثمينة، حتى عثر عليها في قصر القبة بعدما خلع فاروق، فسلمت إلى السفير الإيراني بالقاهرة سنة ١٩٥٣ وأعيدت إلى حكومة إيران (٢).

فإذا كان الملك فاروق لم يستحي أن يسرق الموتى فعليك تخمين ماذا فعل بالأحياء؟

جاء عبد الناصر إذاً وحاول إنصاف الفقراء وضبط العلاقات الاجتماعية، وهكذا عاشت مصر منذ ١٩٥٢ حتى ١٩٦٧، تحلم بالنهوض والتحرر من الاستعمار وترسيخ قيم العدالة الاجتماعية، لكن أبرز إنجازات ذلك العهد تمثل في جعل التعليم مجاناً، صحيح أن الدكتور طه حسين كان قد أطلق مقولته الشهيرة «إن التعليم كالماء والهواء»، إلا أنه لم يتمكن عندما كان وزيراً للمعارف في حكومة الوفد عام ١٩٥٠، إلا من تحقيقها على مستوى المدارس الابتدائية والإعدادية فقط، لكن عبد الناصر هو الذي قرر أن تكون جميع مراحل التعليم مجاناً، وهكذا دخل آلاف الطلاب الجامعة مع مطلع الخمسينيات من القرن المنصرم، مفعمين بالأمل في مجتمع أجمل وأفضل يؤازرهم ملايين الفلاحين والعمال الذين شعروا لأول مرة منذ قرون بعيدة، بأنهم أصبحوا أصحاب البلد حقاً، وبأن مصر صارت للمصريين.

كان عدد سكان مصر عام ١٩٤٧ نحو ١٩ مليون نسمة، ووصل عام ١٩٦٦ إلى ٣٠ مليوناً تقريباً وفقاً للدكتور جمال حمدان (٣)، أي أن عدد السكان زاد في عهد عبد الناصر وهو زمن قصير بنحو الثلث، وهي إشارة دالة على حب الحياة التي اعترت مشاعر المصريين في ذلك العهد!

عبد الوهاب آدم الموسيقى

في هذا المناخ السياسي والاجتماعي ظهر عبد الحليم حافظ في عالم الموسيقى والغناء، ذلك العالم الذي كان يسيطر عليه اثنان لا ثالث لهما هما أم كلثوم (١٨٩٨ – ١٩٧٥)، في الجانب النسائي، ومحمد عبد الوهاب (١٨٩٧– ١٩٩١) على مستوى الرجال، فما من مطرب رن صوته بأغنية منذ أوائل الثلاثينيات وحتى الخمسينيات، إلا وكان متأثراً بدرجة أو بأخرى بعبد الوهاب وأدائه، لأن ما أحدثه عبد الوهاب كان تطويراً وتجديداً لا مثيل لهما في تاريخ الغناء، فاستحق اللقب الذي أطلقه هو نفسه على عبده الحامولي (رحل عام ١٩٠١)، وهو «آدم الموسيقى».

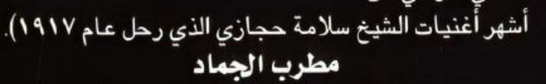


عبد المطلب

محمد فوزي ومحمد أمين ومحمد عبد المطلب وعبد العزيز محمود وكارم محمود وعبد الغني السيد وإبراهيم حمودة وجلال حرب وفريد الأطرش وعبده السروجي وغيرهم، كلهم يعدون أبناء آدم، أو عبد الوهاب، كل بطريقته لأن عبد الوهاب كان المثل الأعلى الذي يجب أن يحتذى به، أو النموذج الذي ينبغي الاقتداء به لكل مطرب يحلم بالسطو على مساحة في خريطة الغناء!

يمكن القول إذاً إن هؤلاء المطربين سعوا إلى تقليد أبيهم الروحي سواء في الأداء أو النبرة أو حتى في الإيقاع الموسيقي، أو فلنقل إنه كان من الصعب أن يلوح في الأفق مطرب آخر يمتلك منطقاً مغايراً في الغناء غير المنطق الذي أسسه ورسخه عبد الوهاب على امتداد ثلاثين عاماً تقريباً قبل ظهور عبد الحليم.

عبد الحليم وعبد الوهاب



بليغ حمدي

(هناك أسطوانات لعبد الوهاب بصوته يعود تاريخها إلى عام ١٩١٧ مثل «أتيت فألفيتها ساهرة»، و«ويلاه ما حيلتي وما عملي»، وهي من أشهر أغنيات الشيخ سلامة حجازي الذي رحل عام ١٩١٧).

مطرب الجماد

«يا شبشب الهنا ياريتني كنت أنا»، و«منديلي الحلو»، و«يانجف بنور»، و«تاكسي الغرام»، و«شباك حبيبي».. كل هذه الأغاني وغيرها كثير شدا بها عبد العزيز محمود أو مطرب الجماد، إذ إنه يغني لأشياء جامدة: «شبشب»، ومنديل، ونجف.. إلخ، هذه الأغنيات وغيرها كانت رائجة قبل ١٩٥٢ وقبل ظهور حليم، فعبد الغني السيد كان يغني «ولا يا ولا ارحمني يا ولا»، وكارم محمود يقول «عنابي»، وعبد المطلب يعلن أنه «ساكن في حي السيدة»، ومحمد قنديل ينادي «يا رايحين الغورية»، ومحمد فوزي يتساءل «مال القمر ماله.. ماجيناش على باله».. وعبده السروجي يصف نفسه بأنه «غريب الدار.. عليَّ جار زماني القاسي وظلمني .. مشيت سواح مسا وصباح»..إلخ.



يوسف وهبي

لاحظ أن كل هذه الأغنيات الجميلة كانت تخاطب الرجل الشعبي، ابن البلد، الذي نال حظاً ضئيلاً من التعليم أو لم ينل شيئاً أصلاً فكلماتها بسيطة والتعبير فيها واضح وصريح، حيث يتغزل المطرب بمفاتن المحبوبة بصورة مباشرة تخلو من الخيال الراقي أو تكاد، خذ عندك «عنابي يا خدود الحليوة»، و«يا بتاع التفاح لون تفاحك راح في خدود ست الكل».. أو يهبط مستوى الكلمات إلى منزلة سوقية مثل «يا شبشب الهنا.. ياريتني كنت أنا..»!



فريد الأطرش

أي أن غناء الذين ساروا خلف عبد الوهاب كان موجهاً أصلاً إلى فئة اجتماعية كبيرة في المجتمع المصري في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، فئة تضم أولاد البلد في القاهرة والمدن الرئيسة مثل الإسكندرية وطنطا والزقازيق، وتضم أيضاً

عدداً لا بأس به من أولاد الريف الفقراء الذين يطربون للأغنيات البسيطة التي ترنم بها محمد عبد المطلب أو محمد قنديل «ع الدوار ع الدوار راديو بلدنا جاب أخبار».. إلخ، والمعروف أن «الدوار» هو منزل عمدة القرية في الريف المصري.

حليم وسطوة اللهجة القاهرية

لا يمكن لأحد أن يفهم مصر والمصريين إذا لم يدرك دور القاهرة في تكوين وتشكيل وعي وذائقة المصريين، فالقاهرة ليست مجرد عاصمة لبلد مثل بقية العواصم، بل يمكن اختزال مصر كلها في القاهرة، فمع منتصف القرن التاسع عشر أخذت القاهرة شكل المدينة الأوروبية الحديثة، فراحت تحتشد بالبنوك والمصانع والمدارس والجامعات والمسارح ودور السينما والمؤسسات الصحفية والمتاحف والملاهي الليلية والمطاعم الفاخرة والقصور.. إلخ، وهو أمر لم يتوافر لمدينة عربية أخرى بكل هذه الكثافة في هذا الزمن القصير، أي منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى أوائل الثلاثينيات حين اكتملت القاهرة وأضيئت بكل أنوار المدينة العصرية.

لذا لا عجب ولا غرابة في أن يقول الناس الذين يذهبون إلى القاهرة: «إنهم ذاهبون إلى مصر»، فتتحد المدينة بالبلد كله، وتصبح اللهجة القاهرية هي «اللهجة المصرية»، وتتسلل هذه اللهجة القاهرية «المصرية» العجيبة إلى كل البلاد العربية من خلال آلاف الأفلام والأغنيات والمسلسلات، فضلاً عن آلاف المدرسين والأطباء والمهندسين وغيرهم من الذين جابوا الأرض العربية، بلهجتهم القاهرية «المصرية» للعمل في الدول الشقيقة..

حليم مطرب طلاب القاهرة

هذه اللهجة القاهرية متعددة المستويات بطبيعة الحال، فالذين يعيشون في الأحياء الشعبية لهم طرائقهم في الكلام، وأصحاب المكانة الطبقية لهم أساليبهم في الحديث، أما لهجة المتعلمين فهي أرق وأرقى بالطبع من لهجة الذين خاصمهم العلم وهكذا!

في عام ١٩٥٤ قدم عبد الحليم حافظ أول أغنية له من ألحان عبد الوهاب، وهي «توبة»، فلاقت نجاحاً باهراً وضعه في الصف الأول، ثم تلاها بأغنية «على قد الشوق» لكمال الطويل، فأطاح بضربة واحدة منطق الغناء السائد قبله، وأقبل على الاستماع إليه طلاب الجامعة والمدارس



الثانوية الذين صاروا مئات الآلاف بعد إقرار مجانية التعليم.

تتكئ هاتان الأغنيتان على مشاعر حب رومانسي راقٍ يناسب شباب الطلاب، أما الكلمات فقد صيغت بلهجة مصرية «قاهرية» شاعرية ليس فيها تعبيرات «شهوانية»، أو تراكيب شعبية فجة ينفر منها طالب الجامعة الهائم في خيالات الغرام، أو طالبة الجامعة الباحثة عن فتى يتغزل فيها بأعذب الكلمات وأصفاها. وعلى الرغم من أن إمكانات صوت عبد الحليم حافظ تظل متواضعة من حيث القوة والقدرة على التلون إذا ما قورنت بعبد الوهاب وتلاميذه، فإنه تميز عنهم بقدرة خاصة تتمثل في براعته في تقمص الحالة التي يعبر عنها وهو يغني، فهو عاشق ملهوف إذا شدا بـ «حبك نار»، وهو متيم منبوذ في «يا قلبي جني»، وهو مبتهج ومندهش في «أول مرة تحب يا قلبي»..

أضف إلى ذلك أنه ابتعد تماماً عن منطق الأداء «الوهابي» الذي ترسخ في النصف الأول من القرن العشرين، وخط لنفسه أداءً «هامساً» يوائم طبقات صوته الحنونة والمنخفضة وإمكاناته المحدودة! فضلاً عن أن مخارج ألفاظه واضحة تماماً، فلا يوجد عنده حرف مضطرب، أو كلمة قلقة عند أدائها، وربما يكون هو المطرب الوحيد الذي يمكن فهم كل كلمة يقولها عند سماعها لأول مرة، من فرط وضوح نطقه لها.



أفيش فيلم لحن الوفاء

الهجوم السينمائي

في أسبوع واحد من مارس عام ١٩٥٥، تم عرض أول فيلمين لعبد الحليم حافظ هما: «لحن الوفاء» للمخرج إبراهيم عمارة في ١٩٥٥/٣/١، و«أيامنا الحلوة» في ١٩٥٥/٣/٧ قدم في الأول ثلاث أغنيات بمفرده وثلاثاً مع شادية، وفي الثاني ترنم بأربع أغنيات.



شادية وعبد الحليم في فيلم لحن الوفاء



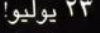


عبد الحليم حافظ

صحيح أن صوته سبق جسده أو وجهه إلى السينما، من خلال تعليقه الغنائي على أحداث بعض الأفلام مثل «فجر» الذي عرض في ١٩٥٥/١/١٧، وقام ببطولته جمال فارس مع ماجدة، إلا أنه لم يلفت الانتباه كثيراً، حتى شاهده الناس متجسداً على الشاشة البيضاء، فوجدوه نحيفاً، ذا ملامح هادئة لا تخلو عيناه من نظرات حزن تجد صدى طيباً عند الجماهير.

في «أيامنا الحلوة» و«لحن الوفاء» جسد عبد الحليم شخصية طالب جامعة، في حين أن المطربين الذين سبقوه كانوا يقومون بأدوار شعبية ، فعبد العزيز محمود سائق تاكسي في فيلم «تاكسي الغرام» ١٩٥٤، ونجار في «شباك حبيبي» ١٩٥١، وكارم محمود مثل دور بقال في فيلم «معلهش يا زهر» ١٩٥٠، وهكذا بدا حليم مغايراً في كل شيء، فطلاب الجامعة والشباب المتعلم كانت لهم الحظوة في مصر عبد الناصر، ثم إن الجمهور العام الصاعد مع الثورة كان يبحث عن نجم يشبهه، ويعبر عن أحلامه في مستقبل أفضل، وكان من الصعب أن يكون ذلك النجم أو المطرب قد ظهر في عهد الملك، العهد الذي تمت إدانته، لذا، استقبل الشباب موهبة عبد الحليم وحضوره بترحاب شديد، لأنه لم يكن له أي وجود قبل ١٩٥٢، فلم يلبس الطربوش، رمز العصر الملكي، ولم يشاهده الناس في أفلام تزين صورة الملك فاروق جدران المنازل أو المؤسسات الحكومية في هذه الأفلام، فهو بمعنى ما، أبيض نقي غير ملوث بتاريخ «مشبوه» تم فضحه من قبل النظام الجديد الذي استولى على السلطة ليلة ٢٣ يوليو!

عبد الحليم وعبد السلام النابلسي



في آخر عام ١٩٥٥ عرض لعبد الحليم فيلمان آخران هما «ليالي الحب» من إخراج حلمي رفلة وعرض في ١٠/١٥، و«أيام وليالي» لبركات في ١٢/٥ الذي يظهر فيه حليم وهو يغني «توبة» مع زملائه في الجامعة الذين انفعلوا بما يقوله؛ فطالب الجامعة لا يستطيع أن يردد مع محمد فوزي مثلاً «يا ولاد بلدنا يوم الخميس حاكتب كتابي وابقى عريس، والدعوة عامة وهتبقى لمة»، لأن هذه المعاني تناسب ابن البلد، بينما الطالب يسعده أن يهمس مع حليم «أنا لك على طول خليك ليه.. خد عين مني وطل عليا، وخد الاثنين واسأل فيا» التي ترنم بها في فيلم «أيام وليالي»!!



محمد فوزي

في عام ١٩٥٦ قام العندليب الأسمر ببطولة فيلمين فقط هما «موعد غرام» وعرض في ٣/٧، و«دليلة» في ١٠/١٥، الذي لم يصادف نجاحاً كبيراً عند عرضه لأن عبد الحليم جسد فيه دور «كهربائي»! فضلاً عن عوامل أخرى بالطبع!

ثلاثة أفلام أنجزها عبد الحليم في عام ١٩٥٧ هي: «بنات اليوم» وعرض في ١/٢١، و«الوسادة الخالية» في ١٠/٧، و«فتى أحلامي» في ١٢/٢٢. «شارع الحب» هو الفيلم الوحيد الذي عرض له في عام ١٩٥٨ يوم ١٠/١٣ وكذلك قدم فيلماً واحداً عام ١٩٥٩ هو «حكاية حب» الذي عرض في ٤/٦، أما في عام ١٩٦٠ فقدم ثلث فيلم «نعم ثلث فيلم» اسمه «البنات والصيف» وكان عبارة عن ثلاث قصص مختلفة، كل قصة لها مخرج وفريق عمل مختلف!

«يوم من عمري» و«الخطايا» عرضا في ١٩٦١/٣/١٧، و ١٩٦٢/٣/٤ على التوالي، ثم انقطع عبد الحليم عن السينما لمدة خمسة أعوام بسبب متاعبه الصحية كما يبدو، وعاد في ١٩٦٧/١/٩ ليعرض لنا «معبودة الجماهير»، وبعد ذلك بعامين فقط وبالتحديد في ١٩٦٩/٢/١٧ قدم عبد الحليم آخر أفلامه «أبي فوق الشجرة»! الذي جسد فيه شخصية طالب جامعة، على الرغم من أنه كان في الأربعين من عمره.

باختصار هذه هي رحلته مع السينما التي كان حصادها خمسة عشر فيلماً وثلث الفيلم، وفيها كلها تقريباً جسد شخصية الطالب أوالمهندس أو المحاسب، أي أنه لم يقترب أبداً من تجسيد شخصية «الفلاح» أو «العامل» أو «الحرفي» أو «ابن البلد» أو «الشرير» لأنها لم تكن تناسبه، ولا توائم الصورة التي أخذت تستقر في وجدان الشباب عنه، كما أنه لم يدخل في معركة «خناقة» مع أحد في أي فيلم، فقط تلقى لكمة من أحمد رمزي في «أيامنا الحلوة»، وصفع هو يوسف فخر الدين على وجهه في «البنات والصيف»، كما تلقى لكمة من صباح ومنيرة سنبل في «شارع الحب»، أي أنه ظل حالماً هائماً لا يقوى على المشاجرات.

عاشق العروبة

لا يمكن قراءة تجربة عبد الحليم العريضة من دون التوقف عند علاقته الغنائية بوطنه مصر وبأشقائه العرب، فقد حظي بلقب «مطرب الثورة»، فكان يقدم أغنياته الوطنية في الاحتفالات التي تقام بمناسبة ذكرى ٢٣ يوليو، كما كان يسهم بصوته في الأحداث الكبرى التي تمر بالمنطقة، ومن ينسى صوته في النشيد الشهير «وطني حبيبي الوطن الأكبر» الذي لحنه عبد الوهاب، ومن ينسى «صورة» و «يا أهلاً بالمعارك» و«بالأحضان» و«قلنا ح نبني وآدي احنا بنينا السد العالي»، و«المسؤولية» و«ناصر يا حرية» و«عدى النهار» و«فدائي» وغيرها عشرات من الأغنيات التي كانت جزءا من –وتعبيراً عن– معركة وطن وأمة ضد الاستغلال والاستعمار، هذه المعركة التي انخرط فيها عبد الحليم بكامل طاقته الصوتية وإيمانه العميق بمصر وعبد الناصر والأمة العربية كلها، فكان يبذل أقصى جهد وهو يحض الجماهير على العمل أو يحرضها على المقاومة والاستبسال.

ومن هؤلاء الجماهير سوى الشباب المتعلم الذي يحمل مشاعر مرهفة نحو الوطن، وتجرحه بقوة أية اعتداءات يتعرض لها هذا الوطن.

أقبل الشباب إذاً في العالم العربي كله على غناء عبد الحليم الوطني، كما انفعلوا بمقطوعاته العاطفية، وكان طبيعياً أن تجد الشباب يرددون أغنيات عبد الحليم الوطنية وهم في مدرجات الجامعة أو رحلاتهم وأنديتهم، وهو أمر نادر الحدوث مع أي مطرب آخر!

حتى حين مات عبد الناصر فجأة في ١٩٧٠/٩/٢٨، ظل عبد الحليم وفياً لأفكاره ومبادئه، وحين هل انتصار أكتوبر ١٩٧٣ هرول إلى الإذاعة ليقدم آخر أغنياته الوطنية مثل: «لفي البلاد يا صبية»، وبعدها «صباح الخير يا سينا»، و«المركبة عدت» وغيرها..

رأى عبد الحليم بعينيه كيف دارت الأيام دورة معاكسة على يد السادات، فانقلب الأصدقاء إلى أعداء، وتم الترحيب والحفاوة بالذين فضح بصوته مؤامراتهم على الأمة، فلم يصطدم مع الرجل الأول في السلطة، لكنه لم يذكر اسمه أبداً

في أي أغنية، وهو الذي أفاض وزاد في ترديد اسم جمال عبد الناصر. وهكذا لم يحظ السادات طوال سبعة أعوام من حكمه عاشها حليم إلا بسطر واحد في أغنية هو: «قالها الزعيم من غير ما يحلف.. عمر الزعيم ما يقول ويخلف»، ورحل حليم من دون أن ينطق اسم السادات صراحة في أية أغنية!

براعته في التسويق

يشهد جميع من اقتربوا من عبد الحليم أنه كان يتمتع بقدرة فائقة على تسويق نفسه إعلاميا، فكان صديقا لرؤساء تحرير الصحف والمجلات أمثال: كامل الشناوي ومصطفى أمين «الأخبار»، وإحسان عبد القدوس «روز اليوسف» وأحمد بهاء الدين «صباح الخير»، ومحمد حسنين هيكل «الأهرام».. وغيرهم الذين لم يتوقفوا لحظة عن ذكر أخبار صديقهم في صحفهم ومجلاتهم. كما كان قريباً من كبار أدباء عصره مثل يوسف إدريس وصلاح عبد الصبور، وقارئاً جيداً لنجيب محفوظ وطه حسين والعقاد كما قال مرة في البرنامج الإذاعي «زيارة لمكتبة فلان»! هذا الإلمام بالثقافة العامة واقترابه من الكتاب والصحافيين جعله يعرف كيف ينتقي ويدقق في كلمات الأغنيات التي تعرض عليه أو يطلبها، ولعل حكايته مع عبد الرحمن الأبنودي توضح ذكاءه وحضوره، فعندما نجحت أغنية «عدوية» لمحمد رشدي نجاحاً مدوياً، ارتبك حليم وحاول أن يجدد في عمله، فاستدعى الأبنودي كاتب «عدوية»، وطلب منه أن يكتب أغنية «شعبية» مثلها، على الرغم من أنه لم يقترب من هذا النوع من الغناء من قبل، لكن رغبته في مسايرة الشائع والناجح جعلته يقدم «أنا كل ما أقول التوبة» و«على حسب وداد قلبي»، وعلى الرغم من نجاح هاتين الأغنيتين فإن الجمهور ظل محتفظا لمطربه المفضل بصورة الفتى الرومانسي المتعلم والعاشق المتيم!

رفقاء الرحلة

ليس من الإنصاف أن نهمل رفقاء رحلة عبد الحليم حافظ الباذخة مع الغناء، وأقصد كمال الطويل ومحمد الموجي، ثم بليغ حمدي، الذين صاغوا أجمل الألحان العصرية لصديقهم العزيز. صحيح أن عبد الوهاب لحن له عدة أغنيات بديعة، لكن يظل الإنتاج الأكبر لهؤلاء الرفقاء، فقد كانوا شباباً مثله (الطويل مولود عام ١٩٢١، والموجي ١٩٢١ وبليغ ١٩٣٠)، بعكس عبد الوهاب الذي يكبره باثنتين وثلاثين سنة، وكانوا يحلمون معه بمجتمع أفضل وأجمل وبأن يقدموا أغنيات تناسب العصر الجديد الذي أطل صباحه يوم ٢٣ يوليو، وقد كانوا موهوبين حقاً، فاستطاعوا أن يبتكروا جملاً لحنية توائم طبيعة الصوت الحنون لصديقهم، هذه الجمل كانت تحتشد بأنبل العواطف وأرقها، فيتلقفها حليم ليسمو بأدائه إلى ذُرا غير مسبوقة في تاريخ الغناء العربي.

كما لا يمكن أن نغفل الشعراء الذين التفوا حوله مثل: مرسي جميل عزيز وصلاح جاهين وسمير المحجوب ثم الأبنودي وغيرهم. فقد كانوا كلهم شباباً من جيله مثل الملحنين، وكانوا يبحثون عن لغة جديدة تعبر عن إيمانهم بالثورة وإخلاصهم للعدل والجمال والحرية. فبعد أن كان مطرب الجماد يغني «يا شبشب الهنا..» وعبد الغني السيد يقول «ولا. يا ولا..» ها هو عبد الحليم يغني من كلمات الأبنودي بعد الهزيمة في ١٩٦٧: «عدى النهار والمغربية جاية تتخفى ورا ضهر الشجر، وعشان نتوه في السكة شالت من ليالينا القمر!».

أي عذوبة بعد ذلك؟ إنه شعر العامية المصرية في أصفى حالاته وأعذبها!

ذكريات خاصة

بيني وبين عبد الحليم ذكريات خاصة، صحيح أنني لم ألتق به أبدا، فحين غاب عن الدنيا كنت تلميذاً في الصف الأول الثانوي، لكنني كنت أعده أحد أصدقائي المقربين، وكان شقيقي الأكبر المرحوم فوزي (١٩٥٣ - ٢٠٠٤) يحبه حباً جماً. فيصطحبني معه إلى السينما لمشاهدة أفلامه، ويكتب كلمات أغنياته كلها في دفتر خاص، ويشرح لي ملاحظات مهمة عن طريقته في الأداء أو في قدرته على تسويق اسمه. كما أذكر أننا كنا ننتظر حفلات «شم النسيم» في القاهرة لنلتف حول التلفزيون الذي ينقل على الهواء مباشرة حفل عبد الحليم، ومازلت حتى الآن أشم رائحة ذلك الزمن البعيد، ونحن نستمع لأغنيات يشدو بها لأول مرة مثل: «زي الهوى»، «رسالة من تحت الماء»، «حاول تفتكرني»، «أي دمعة حزن لا»، «فاتت جنبنا»، «ونبتدي منين الحكاية»، ثم «قارئة الفنجان» التي كانت آخر أغنية يترنم بها في حفل «شم النسيم» عام ١٩٧٦.

ولما مات عبد الحليم لم أصدق، ومازلت حين أرى وجهه يطل على شاشة التلفزيون أشعر بأنه مازال حياً، على الرغم من أن منزلته الفنية تراجعت عندي بشكل كبير، حيث أصبحت الآن من عشاق أم كلثوم وعبد الوهاب، لكن كلما هلّ وجهه مسني شجن ما أعادني إلى ذكرى وجوده حياً في حياتنا!

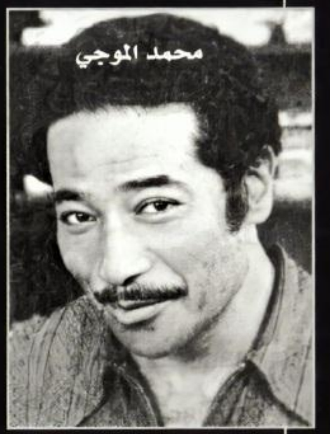
آراء المبدعين

لذا كان من الطبيعي أن يقول عنه رياض السنباطي عند رحيله: «لقد انطفأت شمعة أضاءت للملايين»، ويعلن محمد الموجي بحرقة: «إنه شريك عمري وزميل فني ولن أعوضه مهما طال الوقت»، ويردد بليغ حمدي بأسى: «حزني على عبد الحليم حافظ لا تصفه الكلمات، لقد عشنا معا أحلى أيام العمر»، أما الدكتور يوسف إدريس فيكتب في «الأهرام» تحت عنوان «حيث يتعانق المجد والموت»: [ومادمنا نحيا فسيظل يحيا، فالذي مات هو الحنجرة والذي سيحيا هو النغم الخالق، المبدع الخارق الممتد دائما عبر الزمان والمكان والأجيال]!

ويعلن يوسف وهبي عميد المسرح العربي: «إن الفنان النابغة الرقيق الحاشية الذي قاسى الآلام الشديدة خلال سني مرضه قد استراح الآن، واستكان على أريكة في الجنة يحوطه عظماء الفنانين الذين فقدناهم أمثال سيد درويش وفريد الأطرش وأم كلثوم»..

بينما كان عبد الوهاب يتصل برئيس الوزراء ممدوح سالم ليطلعه على ظروف وفاة عبد الحليم، وإعداد ترتيبات استقبال جثمانه، كان يهتف: «مش معقول، مش قادر أصدق إنو عبد الحليم مات»! ثم يلخص عبد الوهاب رأيه في حليم قائلا: «إن له شخصية فنية مستقلة في التأدية.. له أسلوب ذاتي وقد أخلص لفنه وأخلص لخدمة فنه»! يقصد التسويق لإبداعه!

من جانبه وضع الفنان السوري المتميز الراحل فهد


محمد الموجي


عبد الحليم وميرفت أمين






مصطفى أمين


محمد رشدي


المطرب محمد أمين

يوسف إدريس


أحمد بهاء الدين


رياض السنباطي

كمال الطويل


عبد الرحمن الأبنودي

بلان إعلاناً مدفوع الأجر في «الأهرام» مع صورته يقول: «إنه وصل أمس إلى القاهرة قادماً من الخارج بدلاً من اليوم الأحد لمشاركته أمس في تشييع جنازة الراحل العظيم عبد الحليم حافظ!».

كما تقرر وقف التسجيلات الغنائية في الاستوديوهات لمدة أسبوع حداداً على وفاة العندليب، كذلك أوقفت الفرقة الموسيقية الماسية بقيادة أحمد فؤاد حسن نشاطها لمدة شهر، وهي الفرقة التي صاحبته في مشواره الغنائي.

المثير أن عبد الحليم كان معروفاً بأنه مريض بلهارسيا، وأن هذا المرض يسبب له آلاماً كثيرة، ويدفعه إلى السفر خارج البلد بحثاً عن علاج لأوجاعه، ومع ذلك كانت الصدمة بالغة حين أعلن مستشفى «كينغز كوليدغ» - الكلية الملكية - في لندن حيث كان يعالج، عن وفاته في العاشرة من مساء ١٩٧٧/٣/٣٠، بتوقيت غرينتش متأثراً بنزيف حاد أصيب به عقب حقنة أعطاها له الطبيب في المريء، ذلك أن عبد الحليم كان يعاني آلاماً حادة في الأيام الأخيرة، بسبب توقف جهازه الهضمي عن العمل وارتفاع نسبة الصفراء في الدم!

فور سماع الخبر انهارت الجماهير المفتونة بمطربها المحبوب، وقامت الصحف المصرية بتخصيص الصفحات الطويلة للحديث عنه ولتغطية الجنازة، فجريدة «الأهرام» على سبيل المثال كلفت ثمانية محررين بتغطية الخبر الحزين وتحليله وهم: كمال الملاخ ومحمد صالح وآمال بكير وحسين غانم ومصطفى الضمراني وصلاح عبد العزيز ومصطفى الطرابيشي. كما قام أنطون ألبير وحسن التوني بتصوير الجنازة ومراسم العزاء، وقد نقلنا من «الأهرام» بعض المعلومات الواردة هنا.

حصاد الرحلة

الآن، وبعد مرور ٣٠ عاماً على رحيل أشهر مطرب عربي في القرن العشرين.. ماذا بقي من عبد الحليم.. وماذا كان يمثل في حياته؟ وهل مقدر له أن يستمر لعقود أخرى؟

في ظني أن عبد الحليم كان متوائماً تماماً مع المزاج العربي العام في الفترة التي عاشها، أو فلنقل: إن هذا المزاج العام الذي بدأ يتشكل مع منتصف خمسينيات القرن الفائت كان يبحث عن فنان شاب جديد، يعبر عنه فالتقى الاثنان في لحظة تاريخية نادرة وامتزجا امتزاجاً عجيباً، هذا المزاج العام كان قوامه الرئيس هم الشباب من الجنسين، فالفتيان المتعلمون - الطلاب - رأوا في حليم - خاصة بعد أن رسخت السينما ملامحه المسالمة وجسده النحيل - معبراً عن أحلامهم في الغرام والعشق، أما البنات - الطالبات - فكن يرينه نموذجاً كامل الأوصاف لفتى الأحلام الذي يراود خيال كل واحدة منهن!

هؤلاء الشباب هم الذين انهاروا وبكوا وانتحروا عندما علموا بالخبر المشؤوم، ومن ثم يصح القول إن غناء عبد الحليم قد يظل معبراً - بشكل أو بآخر - عن عذابات العشق ولذة الوله عند الطلاب تحديداً، وإن كان من الصعب تصور إلى أية فترة مقبلة سيظل يحتل مكاناً مرموقاً في قلوب الأجيال الجديدة من الطلاب، فالزمن تغير والمزاج العام تبدل والأجواء السياسية والاجتماعية التي انطلق منها عبد الحليم كالشهاب صارت في خبر كان، والمنطق الموسيقي الذي كان سائداً في عصره تمت الإطاحة به، فالإيقاع أسرع وأكثر صخباً، لكن المؤكد أن عبد الحليم حافظ كان متغلغلاً بقوة في أوردة وشرايين الملايين من الفتيات والشبان العرب، فلما مات فجأة ارتج كيانهم وانهارت أحلامهم وهرولت الطالبة أميمة عبد الوهاب محمد من منزلها بالحلمية إلى مسكنه بالزمالك، وصعدت إلى الطابق السابع تكويها الفجيعة، لتنهي حياتها بالانتحار وهي موقنة بأنها فقدت فتى أحلامها إلى الأبد! وهو أمر لم يحدث أبداً مع أي مطرب عربي آخر! وفي ظني أنه لن يحدث! ◆

المراجع:
١) جريدة الأهرام من ١٩٧٧/٣/٣١ إلى ١٩٧٧/٤/٥
٢) عبد الرحمن الرافعي «مصر المجاهدة في العصر الحديث» الجزء الثالث - دار الهلال
٣) جمال حمدان «شخصية مصر. دراسة في عبقرية المكان» دار الهلال - الجزء الرابع - ١٩٩٤.


أعضاء مجلس قيادة الثورة